الواو العاطفة
واختلاف العلماء في دلالتها على الترتيب

د.ذهبية بورويس
جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية قسنطينة-الجزائر

درج علماء العربية إلى جانب علماء الأصول على تتبّع معاني الحروف، والتحقق من دلالتها الأصلية والفرعية باستقصاء وظائفها في النصوص، وما تحدثه من أثر بالغ في توجيهها، وتلوين الأساليب واستكناه الفوائد: ما ظهر منها وما بطن، لذلك ارتبطت هذه الحروف عندهم جميعا بما اصطلح عليه حروف المعاني.

عُدّ مضمون حروف المعاني بكل مفرداته وأحكامه بابا مشتركا بين اللغويين والنحويين والأصوليين،فاستقصوا كل مفردة وحرف هو أحوج إلى التفسير والنظر، بطرائق ترتيبية ألفبائية على نحو ما وقفنا عليه عند ابن هشام الأنصاري في كتابه مغنى اللبيب ببابه الأول[1] أو بنيوية كما فعل الرّماني في معاني الحروف، أو وظيفية إعرابية كما وردت في شرح المفصّل لابن يعيش... [2]تضافرت هذه الجهود وغيرها[3] في توخي استعمالات الحروف وما ينزّل

---

(1)-حروف المعاني عند ابن هشام الأنصاري:دراسة منهجية دلالية، رسالة ماجستير، ذهبية بورويس، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، (1993-1994م)، ص192.

(2)-المرجع نفسه، ص185-191.

(3)-هناك مصنفات أخر كثيرة في حروف المعاني، بعضها يسير وفق خط خالٍ من أي ترتيب، كما هو الحال في كتاب حروف المعاني للزجاجي و الجنى الداني في حروف المعاني

دلالتها، هي مفردات أخر.

كما توزعت حروف المعاني في مصادر القدماء، في أبواب متفرقة وتفتقت عند دقائق و أسرار هذه الحروف، عرضا أو قصدا لتصبح كل الملاحظات والآراء المستخلصة من طرائق توظيفها واستعمالها، مفاتيح في فك النصوص المغلقة واستنطاق خفاياها بحكمة وتدّبر.

- حاجة الكلام إلى حروف العطف[5]:

تعدّ حروف العطف من حروف المعاني التي يكثر دورانها في الكلام، تُستخلص عن طريقها فوائد وأغراض هذا الكلام، ولعلّ هذا من أهم الأسباب التي أثارت حفيظة المشتغلين باللغة العربية لضبط وتحليل مجالاتها القولية المختلفة.

فهذه الحروف تطلبها اللغة دوما في مستوياتها الكلامية الفطرية البسيطة، وفي أنظمة تراكيبها العميقة،إنها روابط جامعة بين أجزاء الكلم تلحق بعضه

للمرادي، أمّا في مصادر القدماء، فقد انتثرت هذه الحروف، وصاحبت أبواب نحوية ولغوية ودراسات قرآنية أخرى،نحو ما ورد في الكتاب لسيبويه، وفي المقتضب للمبرّد، وفي معاني القرآن للفراء. ينظر: حروف المعاني بين البصريين والكوفيين دراسة دلالية، رسالة دكتوراه، ذهبية بورويس، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة، (2004-2005م). ومن كتب الأصول ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، دار الكتب العلمية، بيروت، (1403هـ-1983م)، ص85-95. والمنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد حسن هيتو، دمشق، ط8، (1400هـ-1980م)، ص79-88.

[5]-العطف لغة: هو الثني والرّد، ينظر لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، لبنان، ط(1997)، مادة (عطف)، وينظر شرح المفصل، ابن يعيش، عناية وطبع ونشر مشيخة الأزهر، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، 88/8.

ببعض في مقامات هي أحوج إلى مثل هذه القرائن اللفظية[1]. «...فهي أدلة على معان في نفس المتكلم، فلو أضمرت لاحتاج المخاطب إلى وحي يسفر به عما في نفس مكلّمه...»[2].

ولعلّ حاجة الكلام الدائمة إليها تعود إلى كونها وثيقة الصلة بالمطالب والحاجات اللغوية التي يوظفها الإنسان للكشف عن المحتوى الدلالي الذي تجلبه وتثيره هذه الحروف، لأنها تتحكم بقوة في أجزاء الكلم أو الترتيب الموضوع للفائدة قراءة وتأملاً.

والمطالب المقصودة من المنتوج اللغوي التركيبي موقوفة على فقاهة استعمالها لأنها متنوعة لفظا ودلالة في هذا المجموع المتمثل في: الواو، الفاء، ثم، حتى، أو، إمّا، أم، لا، بل، لكنْ.[3]

- أصالة الواو في حروف العطف:

"الواو" تأتي في مقدمة حروف العطف،لا تنازعها في رتبتها أخواتها، لأنها أكثر دورانا في تأدية أسلوب العطف، لخفتها وأصالتها في العرف الكلامي، فهي تتوفر على خصائص صوتية ودلالية، بما لا يتحقق في حروف العطف الأخرى.

فإذا نظرنا إلى هذا الحرف من مستواه الصوتي، فهو لا يخرج عمّا عناه علماء اللغة المحدثون، بالصوت اللغوي[4] وقد عرّفه ابن جني بأنه: «عَرَضٌ يخرج من النَّفَس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم، والشفتين

---

(1)-ينظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1(1409هـ، 1988م)، ص185.

(2)-نتائج الفكر في النحو، السهيلي، تحقيق محمود إبراهيم البنا، دار الرياض، ط2، ص263.

(3)-ينظر شرح المفصل، 8/88-120.

(4)-ينظر الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، دار النهضة العربية، ط2(1961)، ص43.

مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته،فيسمى المقطع: أينما عرض له حرفا..."[1].

فالواو صوت يتشكل بتدافع النفس في جوف الفم مع انضمام الشفتين على شكل حلقة ضيقة [و] وهذا التشكل يشير إلى الفعالية، والاستمرار،وهما متحققان بالتدافع الذي يُخرج أو يلفظ متعاطفي هذا الحرف مثل "ذهب محمد وزيد" أو "تكلم المتحدثون وأسهبوا" فالمتعاطفان محمد وزيد أو تكلم وأسهبوا وردا مجتمعين، متتابعين دون توقف نحو جاء زيد وعمر وبكر[2]: وهذا التدافع يغنينا عن إعادة الفعل جاء أو أنّي مما لا ينسجم في مقامات كثيرة مع تدافع الصوت،وما يطلبه من إيجاز اللفظ واختصار الكلام[3].

إنّ الواو صوت من الأصوات المجهورة التي يهتز عند نطقها الوتران الصوتيان،وهي بذلك تمتلك القوة في أداء ملفوظها، وهذه الخاصية تُثبت رُسوخها وخفتها في قيادة أخواتها؛ فالوفرة في معانيها واستعمالاتها العرفية والآنية مردّه إلى مزايا متحقّقة فيها ولعلّ أهم هذه المزايا مرونتها ويُسرها لفظا، فهي عند خروجها صوتا لا تصطدم بأي عائق في جهاز نطقها، فتنطلق دون قيد، وهذا الذي خوّل لها أن تكون أكثر حروف العطف طواعية في أداء دلالة مطلق الجمع وبقية المعاني والاستعمالات الأخرى دون صعوبة أو شرط.

إنها أقدم حروف العطف وأصلها جميعا،لأنها لا توجب إلاّ الاشتراك بين

---

(1)-سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط1(1374هـ)1/6.

(2)-حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط(2000م)، ص30-31.

(3)-جيء بالحروف اختصارا ونيابة عن أفعال أو جمل فحروف العطف نابت عن أعطف أو ثني، وحروف النفي جيء بها نيابة عن أنفي وحروف الجواب نابت عن إعادة الجملة نفسها..ينظر شرح المفصل، 8/7.

شيئين في حكم واحد[1] كما تتلوّن صوتا ووظيفة، لما تميزت به من خصائص صوتية مرنة جعلتها تتلون،كذلك في الحال وفي المعية وفي القسم وفي التنبية وفي العطف الذي هي به أولى وأحق، وبذلك تكون حاضرة متالا في أساليب مقامية شتى، كما أنها تؤدي وظيفتها في التشكيل الصياغي أي بنية الكلمة، لورودها علامة للجمع وللإعراب، وحرف علّة[2].

-حرف المعنى "الواو" في سياقه المعرفي

إنّ مجال استعمال الواو في اللغة واسع ومتنوع[3]، وخصائص هذا الحرف الصوتية،أثبتت اقتداره الوظيفي الرابط بين أجزاء الكلم في العطف أو في غيره، وهذا الاقتدار لا يتحكم فيه ولا يوجهه إلا من امتلك المهارة والدُّربة في معرفة أوضاعها ومقامتها المتنوعة ليجلي بها أسرار الكلام ما خفي منه وما ظهر.إنّ هذا هو الذي أدركه العلماء القدماء وحاولوا أن يؤسسوه في جهودهم ومصنفاتهم في حروف المعاني وغيرها، فبنوا آراءهم ومذاهبهم في الإلمام بمعاني واستعمالات هذا الحرف مما استخلصوه من النصوص، ولعل أقوى دليل نتوسل به في الكشف عن دور هذا الحرف في التحكم في معاني النصوص وفك مغالقها، هو ما قيل في هذا الحرف في سياقه المعرفي اللغوي ومدرجه الفكري التاريخي وهي المناظرة التي جرت بين متى بن يونس المنافح عن المنطق اليوناني، وأبي سعيد السيرافي الذي وعى اللغة ومارسها فأدرك خفاياها وسبر أغوارها فسجل لحرف "الواو" مزية غلبة اللغة العربية على المنطق اليوناني.

---

[1]-شرح المفصل 90/8.

[2]-ينظر حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، ص31.

[3]-الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي تحقيق فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(1413هـ، 1992م)، ص410.

فإذا كان المنطق هو آلة معرفة صحيح الكلام من سقيمه، أو علم ميزان العقل الذي يعصم الذهن من الخطأ فهو يختلف عن اللغة التي تحتوي طبائع وغرائز أهلها تحقق بها أغراضها وغاياتها المدركة بالحس والعقل[1] هذا ما عبر عنه أبو سعيد السيرافي لما قال لمتى بن يونس«...أسألك عن حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميزة عند أهل العقل فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطو طاليس الذي تدلّ به وتباهي بتفخيمه، وهو الواو ما أحكامه؟وكيف مواقعه؟وهل هو وجه أو وجوه...؟

فقال [متى] يكفيني من لغتكم هذه،الاسم والفعل،والحرف فاني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها لي يونان.

قال[أبو سعيد]أخطأت لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها...، ومع هذا فحدثني عن الواو وما حكمه؟ فإني أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئا، وأنت تجهل حرفا واحدا في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان، ومن جهل حرفا، أمكن أن يجهل حروفا، ومن جهل حروفا جاز أن يجهل اللغة بكاملها،فان كان لا يجهلها كلها ولكن يجهل بعضها،فلعلّه يجهل ما يحتاج...

وإنما سألتك عن معاني حرف واحد، فكيف لو نثرت عليك الحروف كلها، وطالبتك بمعانيها، ومواضعها التي لها بالحق، والتي لها بالتجوّز...»[2].

فالواو لها معان حقيقية، وأخرى مجازية، وهذه المعاني لا تظهر إلا بالنظر

---

[1] موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبري زاده، تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم، تحقيق على دحروج مكتبة لبنان، ناشرون، ط1(1998م)، ص937.

[2] الامتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تصحيح وضبط، أحمد أمين وأحمد الزين منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، 1/114-117.

والتأمل وبذلك لا يكتفي في معرفتها بلفظها المجرد واستعمالها البسيط وإنما تداولها أخرج إلى المعنى الذي تطلبه الأغراض والمقاصد المشروعة والتعابير التي يستقيم بها الكلام فيفيد ويغني.

- دلالة الواو العاطفة على مطلق الجمع:(*)

ذهب اللغويون والنحويون القدماء إلى أن الواو العاطفة تنفرد بدلالتها على الجمع كيفما كان موضع ورودها في النص، ولم يختلفوا في ذلك وتكاد تكون عباراتهم في تفسير هذا المعنى واحدة،فسيبويه يقول:«..ويجوز أن تقول مررت بزيد وعمرو، والمبدوء به في المرور عمرو، ويجوز أن يكون زيدا...، فالواو تجمع هذه الأشياء على هذه المعاني...»(1)

وذهب المبرد إلى أن الواو العاطفة كذلك «...معناها إشراك الثاني فيما دخل فيه الأول...»(2)

فدلالة الجمع والتشريك بين المتعاطفين واردة بلا قيد،وهذا إطلاق في عطف الشيء على مصاحبه، والمقصود هو إطلاق الجمع وليس جمع الإطلاق إذ يتم العطف بلا قيد الزمان والمكان فيعطف الشيء على مصاحبه، نحو قوله تعالى "فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ "[العنكبوت:15]، كما

(*)-ذهب ابن هشام إلى توجيه هذا المعنى اصطلاحا فقال:«...وقول بعضهم إن معناها "الجمع المطلق"غير سديد، لتقييد الجمع بقيد الإطلاق وإنما هي للجمع لا بقيد» لقد قصد ابن هشام ببعضهم الزمخشري ومن أيده في رأيه فهو القائل بالجمع المطلق. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق، محي الدين عبد الحميد، بيروت لبنان. ط(51407هـ، 1987م)، 354/2. وينظر المفصل في علم العربية، الزمخشري، دار الجيل بيروت، لبنان، ط2، ص304.

(1)-الكتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة، ط3(1408هـ، 1988م). 438/1.

(2)-المقتضب، المبرد، تحقيق عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت لبنان، 46/2.

يعطف الشيء على سابقه وعلى لاحقه نحو "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ "[الحديد:26]، وعلى لاحقه نحو قوله تعالى "كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "[الشورى:3] [1].

وكل هذا الاتساع في احتواء دلالة الجمع بين المتعاطفين هو إطلاق لا يحُدّه قيد أو ضابط،فقد يكون بين متعاطفي الواو تقارب أو تراخ على نحو قوله تعالى" إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ "[القصص: 7]، فالرّد واقع «...بُعيد إلقائه في اليّم والإرسال على رأس أربعين سنة»[2].

فالعطف بالواو نظير التثنية والجمع، تتداخل فيه العوارض اللفظية والمعنوية، فإذا قلت مسلمٌ ومسلمٌ ومسلمٌ فهم مسلمون،ففي الجمع مسلمون تداخلت كل الأوصاف الخاصة والمشتركة والمختلفة والعامة بين هؤلاء،وإذا قلت: جاء زيد، وجاء عمرو،وجاء بكر فهم جاؤوا، تداخلت كل أحداث المجيء المسندة إلى هؤلاء دون اعتبار الفوارق الدقيقة في الحكم والحدث بين هؤلاء، إن الواو تشير إلى خصوص المعنى ودقة اللفظ الذي يظهر الفوارق الدلالية الخفية فهي نظيرة للمعاني الخفية الفارقة وإلى هذا ذهب ابن يعيش قائلا:«...الواو في العطف نظير التثنية والجمع إذا اختلفت الأسماء احتيج إلى الواو، وإذا اتفقت جرت على التثنية والجمع..» [3].

إن في قول ابن يعيش إشارة إلى مطلب الواو الدقيق في إبانة المعاني بها دون أدوات أخرى والظاهر أن قراءته لمعنى الجمع في الواو في لفظ التثنية قراءة لفظية ترتكز على البنية والصيغة التفسيرية للألفاظ، دون الأخذ بأسباب

---

[1]-مغني اللبيب، 354/2.

[2]-المصدر نفسه، 354/2.

[3]-شرح المفصل، 91/8.

الدلالات الخفية في النصوص، وكلامه عن هذا المعنى يختلف عما ذكره الأوائل، ففي قول سيبويه والمبرّد سابقا لا نقف على هذا التفسير اللفظي لدلالة مطلق الجمع، وإنما نلمح تأصيل[*] هذه الدلالة باعتبار حرية اختيار المعنى الذي يحقق الغرض الدقيق المقصود، وهذا يظهر أكثر في قول سيبويه:«...فإذا سمعت المتكلم يتكلم بهذا أجبته على أيّها شئت،لأنها قد جمعت الأشياء»[1].

إنّ معنى الواو لا يتحقق إلاّ في أثناء إنشاء الكلام وسماعه كما يتضح من قول سيبويه، ومعنى ذلك أن الواو في دلالتها الأصلية هي لمطلق الجمع، وفي هذا الإطلاق فُسحٌ مقامية يُهيؤها السياق للسامع أو القارئ دون قيد لفظي في عبارة«...أجبته على أيّها شئت».

-إجماع النحويين على أن الواو لمطلق الجمع

اتفق كل النحويين واللغويين على هذه الدلالة دون أدنى خلاف بينهم، وكما قلت سابقا،فقد تشابهت أمثلتهم وعباراتهم في عرض الحديث عن هذا المعنى على اختلاف مذاهبهم وتنوع مشاربهم، فهذا أبو العباس ثعلب وهو من الكوفيين يقول:«إذا قلت قام زيدٌ وعمرٌو،فإن شئت كان عمرو بمعنى التقديم على زيد، وإن شئت كان بمعنى التأخير وإن شئت كان قيامهما معا،فإذا قلت معا كانا فيه سواء لا غير...»[2].

إن هذا الرأي الصادر عن أبي عباس ثعلب وهو من أئمة الكوفيين،ليس فيه أدنى مخالفة لما جاء به سيبويه وأئمة البصريين، وهذا هو الذي جعل أبا سعيد السيرافي يقرر في شرحه لكتاب سيبويه إجماع العلماء من بصريين وكوفيين على

---

[*]-رسم سيبويه توجّه البصريين في تخريج دلالات الحرف فبنى كل آرائه على العودة إلى المعنى الأصلي الأول للحرف.

[1]-الكتاب، 438/1.

[2]-مجالس ثعلب، أبو العباس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، ط2 ، 368/2.

هذا المعنى [مطلق الجمع] دون خلاف أو جدل بينهم[1].

فإذا كان مطلق الجمع المؤدى بالواو العاطفة قد تحقق فيها دون قيد الزمان أو المكان وبشكل ظاهر في اللفظ ينسجم مع وظيفتها الرابطة بين لفظين أو أكثر، فهل يمكن لهذا المعنى أن يحتمل معنى آخر ينازعه،فيكون هذا المعنى المحتمل غالبا على الدلالة الأصلية التي لا يتعرى منها تماما؟

إن هذا السؤال استدرجته نصوص كثيرة تجعل الواو جالبة لمعنى الترتيب فيكون الذي قبلها مقدما على الذي بعدها،فكيف إذن حصل إجماع العلماء على معنى مطلق الجمع دون اختلافهم في دلالة الترتيب، وكيف نفسر قول القائل أؤدي صلاتي ساجدا وراكعا...؟

-اختلاف العلماء في دلالة الواو العاطفة على الترتيب

إذا كانت دلالة مطلق الجمع قد تحققت في الواو العاطفة في كل أوضاعها الممارسة لفظا ونصا، فلأنها متحررة في تأدية هذا المعنى من قيد الزمان والمكان مما جعل هذه الدلالة تستحوذ على مركزية الأداء الدلالي في توظيف الواو العاطفة، وهذه المركزية هي التي أصّلت بقوة هذا الأداء في الواو، فلم تترك مجالا، لاحتمالات الجمع معيارا ملتزما في النص الذي تُوظف فيه الواو العاطفة باعتبار هذا المعنى فيها هو المقصود حقيقة أو اتساعًا، وهذا التفسير مبني على ما ذهب إليه البصريون وفي مقدمتهم سيبويه[2] الذي يرى بأن حرف المعنى في جميع أحواله يتشبث بدلالته الأصلية، لا يخرج عنها في الظاهر إلاّ ليُردّ إليها قراءة وتأويلاً. إنه مذهب البصريين في التأصيل والتقعيد لأقسام الكلم، فحرف المعنى هو القسم الثالث من أقسام الكلم، ومعاني واستعمالات كل

---

[1]-شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي، المطبعة الكبرى الأميرية بولاق مصر، ط1(1316هـ)، 547/1.

[2]-ينظر الجنى الداني، ص46.

حرف وفق الطائفة التي ينتسب إليها وجه من وجوه المعنى الأصلي، فإن ثبتت له معانٍ فرعية أخرى، فهي مردودة إلى أصلها الذي يلتبس بها تأويلا.[1]

فالواو عندهم موضوعة لمعناها الأصلي وهو مطلق الجمع فهو راسخ واضح فيها وهو الأصل الذي لا يختلف فيه العلماء على تنوع مذاهبهم ومشاربهم.[2]

لقد استدل العلماء على هذا المعنى بنصوص كثيرة وفيرة تؤيد ظاهرا أو ضمنا هذا المعنى في الواو.

ففي قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الحج:77].

فالركوع حاصل قبل السجود، والعبادة التامة حاصلة بعد الركوع والسجود، وكذلك قوله تعالى:"إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا"[الزلزلة:1-2].

والظاهر أن العلماء بالاحتكام إلى الرأي السابق قد استخلصوا دلالة الجمع بين هذه الأحكام والأحداث دون قصد ترتيب، وهي أحكام الركوع والسجود والعبادة، كما أن الآية الثابتة تُظهر إخراج الأثقال بعد الزلزال لكن بالرجوع إلى أصالة مطلق الجمع، فالنص يجمع بين الحدثين والحكمين دون قصد الترتيب ولعلّ هذا الرأي "دلالة مطلق الجمع" عندهم تؤيده نصوص أخرى كما في قوله

---

[1]-لقد رسم سيبويه توجه البصريين في تخريج دلالات الحروف بالعودة إلى أصل معناها وبنى كل آرائه في الكتاب على هذا المذهب، ففي حديثه عن باء الجز لخص مذهبه في قوله«وباء الجرّ إنما هي للإلزاق والاختلاط، وذلك قولك:خرجت بزيْد، ودخلت به، وضربته بالسّوط، ألزقت ضربك إيّاه بالسوط، فما اتسع من هذا في الكلام فهو أصله». كتاب سيبويه 217/4، وينظر المقتضب، المبرد 039/1.

[2]-ينظر شرح الكتاب، السيرافي 05/17/1.

ولعلّ هذا الرأي "دلالة مطلق الجمع" عندهم تؤيده نصوص أخرى كما في قوله تعالى: " يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ "[آل عمران:43]، فالسجود هنا مذكور قبل الركوع، مع حصول الركوع في التصور من قبل، ومعنى الترتيب غير وارد هنا بتتبع التركيب نحوًا.

ومنه قول الشاعر:[1]

أُغلي السّباء بكلّ أدكن عاتق أو جونَةٍ قُدحت وفُضَّ خِتامها

والمعلوم في قول الشاعر، أن الجونة: هي الخابئة المطلية بالقار، وقُدحت بمعنى غُرِفت أو مُزجت، وفُضّ ختامها أي كُسِر طينها، والقدح لا يكون إلاّ بعد فضّ الختام[2] فتعين هنا كون الواو دالة بقوة على مطلق الجمع، عندما قُدّم القدح في بيت الشاعر على الفضّ، فدلالة الترتيب غير مستقرة في الواو، لتصبح معنى فرعيا فيها يتجاوز الدلالة الأصلية وهي الجمع، وإنما الجمع في كل الأحوال هو المعنى المسيطر، ولا اعتبار للمتقدم أو المتأخر بها وإنما القصد هو الجمع بينهما، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري حينما استدل بقوله تعالى: " وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ "[البقرة:58]، وهذا يؤيده قوله تعالى:" وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ "[الأعراف:161].

وبما أن القصة واحدة، فالواو لا تدل في نظره على الترتيب.[3]

- هل تأتي الواو العاطفة لمعنى الترتيب؟

أجمع العلماء على أن الواو تفيد مطلق الجمع، فهي لا تعرّى أبدا من هذا

---

(1)- البيت من الكامل للبيد بن ربيعة وهو من شواهد لسان العرب، مادة(عتق).

(2)- شرح المفصل، 92/8.

(3)- المفصل في علم العربية، ص304.

المعنى، وإن تعرّت من وظيفتها النحوية والإعرابية فهي محتفظة بالجمع، لأن هذا المعنى متجذّر فيها، لا يختفي ضمنا أو ظاهرا منها.

قال ابن يعيش:«ألا ترى أن واو المفعول معه في قولك: استوى الماء والخشبة وجاء البرد والطّيالسة قد تجدها تفيد معنى الجمع لأنها نائبة عن "مع" الموضوعة لمعنى الاجتماع،فكذلك واو القسم ليست عارية من معنى الجمع لأنها نائبة عن الباء، ومعنى الباء الإلصاق، والشيء إذا لاصق الشيء فقد جاء معه، وكذلك واو الحال في قولك:جاء زيد وريدهُ على رأسه، ونحو قوله تعالى"وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ " [آل عمران:154] غير عارية من معنى الجمع ألا ترى أن الحال مصاحبة لذي الحال: فقد أفادت معنى الاجتماع، ولا نعلم أحدا يُوثق بعربيته يذهب إلى أن الواو تفيد الترتيب».[1]

فلماذا جرّت -دلالة الترتيب في الواو- العلماء إلى الحديث عنها على الرغم من إجماعهم على دلالة مطلق الجمع والتماس الأدلة في تأصيل هذا المعنى فيها؟

لعلّ الإجابة عن هذا التساؤل يتراءى في تلك النصوص الكثيرة التي استوقفت المشتغلين بالعربية الذين فانبروا يغوصون في دقائق وأسرار معاني النص الظاهر منها والمضمر، وكادوا جميعهم يستقرون على رأي واحد هو دلالة الواو على مطلق الجمع، لكن الترتيب يظهر جليّا في نصوص كثيرة تطلبها المقامات،لذلك وقع خلاف بين العلماء في احتمال مجيء الواو للترتيب، واستمرت في ذلك آليات تدبّر النص من زواياه المختلفة، ووفق سياقه المتجاوز للقراءة اللفظية المعيارية، فروعيت ملابسات ومرجعيات النص لتؤيد فكرة أن الترتيب لا يُناقض الجمع، وإنما الجمع وارد دائما، وهو في الواو تأصيل سابق للنص: أما ممارسة فهو ملتبس به في كل الأحوال،بينما الترتيب

---

[1]-شرح المفصل، 8/90-91.

تُنتجه قرائن لفظية ومعنوية تتحكم في نسيج النص، فسيبويه حينما ذهب إلى أنه«...يجوز أن تقول:مررت بزيد وعمرو، والمبدوء به في المرور عمرو، ويجوز أن يكون زيدا، ويجوز أن يكون المرور وقع عليهما في حالة واحدة...».[1]

ففي عبارة يجوز أن يكون المبدوء زيدًا، لا يمكن أن يتحقق هذا الجواز إلاّ بقرائن معنوية أو لفظية تستدعي الترتيب، وهو غير واجب وإنما يكون مستحسنا. كما أن هذا الترتيب لا يمكن أن يكون عاريا من الجمع الذي يتضاءل مقصده لتستحوذ دلالة الترتيب على النص؛ وليس على الواو في هيئة حرف مستقل،كما في قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "[المائدة:6].

إن الآية الكريمة تشير إلى احتمال الترتيب الذي جلبته للواو ملابسات النص الموقوفة على الممارسة المعهودة والراسخة بمقصد الآية، فالوضوء يتحقق بالجمع بين هذه الأعضاء في حكم الغسل والمسح، أما الترتيب فلاحق ومحتمل بالقرائن السياقية التي استوعبت كل الدلالات الفرعية المؤدية إلى ترتيب هذه الأعضاء مجموعة في الحكم، ولعلّ هذا هو الذي دفع بعض العلماء المتأخرين وفي مقدمتهم السهيلي إلى إقرار دلالة الترتيب والتصريح بها باعتبار الفضل والشرف في آية الوضوء.

ففي معرض فصله في مسألة دلالة الواو على الترتيب قال :«...ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حساب تقدم المعاني في الجنان.والمعاني تتقدم

---

[1] الكتاب. 1/438.

بأحد خمسة أشياء:إما بالزمان، وإما بالطبع وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال...وربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفّة والثّقل، لا بحسب المعنى...» [1] وبالنظر إلى نص السهيلي نلتمس هذه الدلالة واضحة في قوله:"مقصودة بأغراض وأسباب معينة"، قد تكون ثابتة في غرائز أصحاب اللغة فهم«... يقدمون في كلامهم ما هم به أهمّ وهم ببيانه أعنى، وإن كانا يهمّانهم أو يعنيانهم».[2]

فالسهيلي تدبر هذه الدلالة واستخلصها بالغوص في معنى النص بكلّ أجزائه ومستوياته المعجمية والصوتية، والسياقية وبمرجعياته الوضعية والتاريخية.

فقد يفهم من قوله تعالى: " يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ " [آل عمران:43]، أن السجود هو العبادة والصلاة كلها وأما واركعي مع الراكعين، فهي صلاتها تحديدا في بيت المقدس[3].ولذلك كان تقديم السجود أولى من تقديم الرّكوع.

فسياق النص المعرفي والمعجمي[*] الذي يتوخى دلالة السجود ويتابعها تدبرا هي بمعنى العبادة، وما يترتب عليها من عبودية تجعل الواو في الآية جالبة معها الترتيب المقصدي، دون إغفال الجمع اللفظي الذي لا يزول عنها، وهذا واضح عند بعض العلماء الذين رخّصوا هذا المعنى في الواو ومنهم ابن هشام الأنصاري الذي أنكر إجماع العلماء كلّهم على مطلق الجمع، ورأى أن هناك من

---

[1]-نتائج الفكر في النحو، ص267.

[2]-المصدر نفسه، ص266.

[3]-المصدر السابق، ص270.

[*] -السجود عبادة لله...وسجود الصلاة هو وضع الجبهة على الأرض ولا خضوع أعظم منه، لسان العرب مادة (سجد).

انتقلت من هذا المعنى الأحادي في الواو في ذهاب بعضهم إلى القول بدلالة الترتيب فيها فقال:«...وقول السيرافي إن النحويين واللغويين أجمعوا على أنها لا تفيد الترتيب، مردود بل قال بإفادتها إيّاه قطرب، والرّبعي، والفرّاء، وثعلب وأبو عمرو الزاهد، وهشام، والشافعي...». [1]

لقد أسند ابن هشام دلالة الترتيب إلى طائفة من العلماء وخصّهم بأسمائهم واحدا واحدا، وهذا يدل على كون هؤلاء من مشارب متنوعة ومراحل متفاوتة، ولعلّ الذي يجمعهم كلهم ميلهم إلى الروايات النصية اللغوية الدقيقة. [2]

وهناك من خص القول بهذه الدلالة بالكوفيين دون غيرهم كما فعل ابن عقيل[3]، ويذهب الكنغراوي إلى أن الكوفيين هم القائلون بهذه الدلالة، وكأنه يروم بذلك تفرّد هؤلاء في اتساعهم في تفريع المعاني في حرف المعنى الواحد، وانفلاتهم من المعنى الأصلي الواحد إلى المعاني الفرعية المتنوعة.[4]

ومهما يكن من خلاف في تحديد القائلين بهذه الدلالة، فما يعنينا هو دورها في تفعيل النصوص واستنطاقها بالتماس فوائدها ومقاصدها، ولذلك يمكن القول إن الذين اعتدّوا بهذا المعنى ، يُنزلون النص منزلة القراءة السياقية التي تخرجه من الممارسة اللفظية المعيارية إلى الممارسة المجازية التي يطلبها المقام كثيرا، أو القراءة المرنة غير المتشددة، فإذا كان اللفظ موضوعا على أصل

---

[1]-مغني اللبيب 354/2، وانظر معاني الحروف، الزماني تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة العزيزية، ط2(1407هـ-1986م)، ص59-60.

[2]-ينظر تراجم هؤلاء واتجاهاتهم في كتب الطبقات وهي كثيرة تشير إلى توخي هؤلاء المعاني الدقيقة في نصوص العربية من القرآن الكريم والشعر العربي.

[3]-شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل، تقديم وضبط وتعليق أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم، منشورات دار جروس، طرابلس، لبنان، ط1، ص494.

[4]-الموفي في النحو الكوفي، الكنغراوي، شرح وتعليق بهجت البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ص152.

راسخ محفوظ فتداوله تستدعيه المقامات التي تُستثمر فيها قرائن شتى تضفي على اللّفظ احتمالات ووجوه دلالية يتوارى معها الأصل ولا يزول، ليخرج من المفهوم المعجمي المعهود إلى التنوع الدلالي الذي تطلبه الفوائد والأغراض دون مخالفة العرف المطبوع في طرائق العربية[1].

ولما كانت الواو العاطفة هي مطيّة لإحداث الجمع، فليس معنى ذلك أنها لا تجلب معنى جديدا على مستوى البنية الظاهرة أو المضمرة في النص فالدلالة يمكن أن تتعدد بالواو وتتسع، ويمكن للجمع أن يكون ملتبسا بالترتيب مصاحبا له لأنه وارد في الفهم والمخيلة، فإذا كان الجمع يتجه إلى توارد المتعاطفين، مجتمعين مشتركين في الحكم فهذا مقصد يتجه بالتركيب إلى الحكم المشترك المسلط عليهما وهذه القراءة لا يقع فيها خلاف، لأنها قراءة بنيوية لفظية، أما الالتفات إلى المعنى أو المقصد فلا نجده عند المشتغلين بالنحو إلا في ثنايا خلاف، أو عرض مسألة[2].

فالحرف الموضوع أصلا في العطف لمعنى الترتيب هو "ثُمّ"، ومادام هذا المعنى يتحقق بها، فإن الواو باعتبار أصالتها في دلالة مطلق الجمع ليست حقيقة بهذا المعنى وإذا كانت معرفتها«...أصل ينبني عليه فروع كثيرة»[3]، فالترتيب فرع فيها يستخلص بفقاهة استعمالها لأن "ثّم" يؤتى بها«لترتيب الكلام ، لا لترتيب المعنى في الوجود»[4].

لعلّ دلالة الترتيب العالقة في الواو في كثير من النصوص، كما ذهب ابن

---

[1]- اللغة العربية معناها ومبناها، تمّام حسان، عالم الكتب، ط3(1418هـ-1998)، ص191-204. وينظر نتائج الفكر ص254.

[2]-ينظر نتائج الفكر، ص74.

[3]- المصدر نفسه، ص250.

[4]- المصدر نفسه، ص250.

ذلك[1]، لم تلق القبول عند كثير من العلماء، لأنها لم تستقر في كل النصوص، ولم تنسجم مع سننهم التأصيلية وبخاصة عند الأوائل في المصادر التي يعتد بها في التأسيس نحو الكتاب لسيبويه والمقتضب للمبرد ومعاني القرآن للفرّاء... وفي القرن الرابع الهجري بدأ العلماء المتأخرون يلتفتون إلى استقصاء حروف المعاني، وتتبع معانيها، ولم يعد يُكتفى باللفظ فقط؛ إذ أصبح النحو يدرج جالبا معه المعاني بكل أدواتها، ومن علماء هذه الفترة الذين نزعوا إلى التحليل والنظر والعقل الرّماني الذي قال بمجيء الواو للترتيب عند جماعة لم تر فيها في بعض النصوص إلاّ هذا المعنى، ففي قوله تعالى:" شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[آل عمران:18] ذهب إلى أن «...هذا كلامٌ مرتبٌ، ويؤنس بهذا أيضا قوله تعالى "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا "[الفتح:24]، وأنه لو كفّ أيديهم قبل كفّ أيدي عدّوهم لكان في ذلك محنة لهم ومشقة عليهم، وهذا يؤيد مذهب الشافعي في أن الواو يجوز أن ترتب»[2].

-دلالة الواو على الترتيب عند الأصوليين

توسّل الأصوليون إلى استنباط الأحكام الشرعية بما أسّسه وقعد له النحويون واللغويون، وبما أنّ الدلالة كانت مبتغاهم في تعيين الأغراض والمقاصد، فقد أولوا عناية فائقة بحروف المعاني، فتتبعوا كذلك معانيها واستعمالاتها، وكان لكثير من علماء الشريعة إسهام في إثراء وضبط معاني الحروف والأدوات، ومن هؤلاء الإمام الشافعي الذي انفرد في نظر كثيرين بمذهبه في القول بدلالة الواو على الترتيب، وهذا ما ذكره الرّماني في معاني

---

[1]-مغني اللبيب، 354/2.

[2]-معاني الحروف، الرّماني، ص60.

الحروف[1]،

والمرادي في الجنى الداني[2]، وابن هشام في مغني اللبيب[3] ولعلّ نسبة هذه الدلالة إلى الشافعي منقول عمن تقدم هؤلاء من المشتغلين بالأصول وباللغة، فهذا إمام الحرمين الجويني، يذهب إلى أنّ الواو استوقفت الفقهاء كثيرا، فخاضوا في دلالتها«...وأنها هل تقتضي ترتيبًا، أو جمعًا، فاشتهر من مذهب الشافعي-رحمه الله- المصير إلى أنها للترتيب، وذهب أصحاب أبي حنيفة إلى أنها للجمع .وقد زَل الفريقان:فأما من قال: إنها للترتيب فقد احتكم في لسان العرب، فإنا باضطرار نعلم من لغتها ولَسَنها، أنّ من قال: رأيت زيدًا وعمرًا، لم يقتض ذلك تقديم رؤية زيدٍ، وقد يعلم الناطق والمخاطب، أن رؤية عمرو، كانت متقدمة، ويحسن نظم الكلام كذلك.

ومن أصدق الشواهد في إبطال ادّعاء الترتيب أن العرب استعملت الواو في باب التفاعل، فقالت: تقاتل زيد وعمرو...وأما من زعم أنها للجمع، فهو أيضا متحكم، فإنا على قطع نعلم أن من قال: رأيت زيدًا وعمرًا، لم يقتض ذلك أنه رآهما معا، فإذاً مقتضى الواو العطف والاشتراك وليس فيه إشعار بجمع، ولا ترتيب...»[4]

ويظهر من رأي إمام الحرمين الجويني أن الدلالة المقصودة في الواو بمعنى الجمع هي دلالة متعسفة، لأن الواو تفيد الاشتراك وليس الجمع،والأمر نفسه بالنسبة للترتيب، فالمعنيان غير واردين مع الواو في النصوص التي استدل

---

[1]-المصدر نفسه، ص 60.

[2]-الجني الداني، ص410. ويذهب المرادي إلى أن الإمام الشافعي نقل هذه الدلالة عن الفراء.

[3]-مغني اللبيب، 354/2.

[4]-البرهان في أصول الفقه، الجويني، تحقيق ، عبد العظيم محمود الدّيب، دار الوفاء، المنصورة، ط3(1412هـ-1992م)، 137/1.

بها النحويين بما فسره الجويني من قبل؛ولعلّه تتبع معنى الواو بما يَنجرُّ عنها من أحكام قطعية دقيقة هي مناط الاستنباط الذي يفصل بين حكم وآخر، بينما النحويون توخوا المعاني استنادا إلى نسيجها اللفظي، فبقيت المعاني والدلالات عندهم خاضعة لمرونة التفسير الذي تتعدد وتتنوع فيه مخارج النص.

فإذا كان الإمام الشافعي قد قال بالترتيب في الواو كما ذهب صاحب البرهان، فإن الإقرار به لم يرد عنده في عبارة صريحة وإنما هو مستخلص من عباراته وشرحه لكيفية الوضوء في قوله تعالى" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[المائدة:6]، قال فقصد جلّ ثناؤه«...القدمين بالغسل، كما قصد الوجه واليدين، فكان ظاهر هذه الآية، أنه لا يجزئ في القدمين إلاّ بما يجزئ في الوجه من الغسل، أو الرأس من المسح...»[1]

فالترتيب في الواو على الصورة التي وردت في الآية، مفسّرة بما جاء في السنّة لا يحتمل الإنكار فهو مستفاد من فروض الوضوء مرتبة في نص الحديث الشريف الآتي عن عثمان ﷺ أنه «...دعا بوضوء فتوضأ، فغسل كفيه ثلاث مرات، ثم مضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات، ثم غسل اليسرى مثل ذلك.ثم قال: رأيت

---

[1]-الرسالة (كتاب الأم)، الشافعي، تحقيق وتخريج، رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء، بيروت، ط3(1426هـ-2005م) 29/1.

رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا...»[1].

ويستخلص من نص الحديث حمل الواو في الآية على الترتيب لأن "ثم" نابت عن الواو في الآية ممّا أدّى إلى تعاقب الحرفين في المعنى، ولهذا ذهب جماعة من العلماء إلى أن الترتيب مقصود «...ومن فِعله ﷺ، فإنه لم يتوضّأ إلاّ مرتّبا كما جاء في الآية وثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة...»[2] كما يتعين ذلك من تسليط حكم الغسل على الوجه واليدين والأرجل بمراعاة علامة الإعراب، وهي النصب في أرجل، فهي على تأخرها محمولة إعرابا تابعة لما قبلها عطفا وهو الوجه واليدان، وأما الرأس فقد استقل بحكم المسح المسلط عليه فقط، كما خُصّ بعلامة الجرّ التي أحدثتها فيه الباء دون غيره، ولولا لفظ الواو لما فُهم الترتيب المقصود في الوضوء «...وكلّهم وصفوه مرتّبا، مع كثرتهم، وكثرة المواطن التي رأوه فيها وغير ذلك، ولم يثبت فيه-مع اختلاف أنواعه- صفة غير مرتبة، وفعله ﷺ، بيان للوضوء المأمور به، ولو جاز ترك الترتيب لتركه في بعض الأحوال لبيان الجواز، كما ترك التكرار في أوقات...»[3].

إن دلالة الترتيب التي جلبتها الواو مستقيمة ومقنعة بما يؤيده الحديث الشريف، وهذا لا يعارض السنن النحوية التي تنظر إلى حرف المعنى الذي يقود طائفته مستحقا للتوسع في الأداء ومرونة التوظيف، والقدرة على إدارة معاني

---

[1]-الحديث صحيح مذكور في باب الطهارة أو باب بيان صفة الوضوء الكامل، ينظر شرح صحيح مسلم، الكوكب الوهّاج والروض البهّاج، محمد الأمين عبد الله الأرمي العلوي، مراجعة هشام محمد علي مهدي، دار المنهاج، دار طوق النجاة، ط(1430هـ-2009م)، 179/5-181.

[2]-الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، مصطفى الخن، مصطفى البغا، علي الشربجي، دار القلم، دمشق ط3(1419هـ-1998م)، ص56/1.

[3]-المرجع نفسه، 56/1 وينظر: حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، دياب عبد الجواد عطا، دار المنار، القاهرة، ط2، (1421هـ-2000م)، ص23-29.

النصوص، مثل إن الشرطية، همزة الاستفهام، حرف النداء "يا" وغيرها... [1]. والذي يحمل الأصوليين على المجاز في الحروف، «هو التشابه والمعارضة في تأدية الأغراض المشتركة في دلالة معاني الحروف. إذ لا فرق بين قوله: واللهِ، وبين قوله: باللهِ، وإنما حملنا على هذا المجاز بدلالة المعاوضة»[2].

فدلالة الواو على الترتيب، ليس فيها تعسّف أو خروج عن السنن النحوية، وإنما هي جائزة ومحتملة بما يطلبه النص من أغراض وفوائد، وبما يتشكل من ألفاظ وصيغ، وبما يرافقه من ظروف وملابسات إنتاجه وسَبْكه، وبما يستشرفه من قيم معنوية وشكلية وصوتية، وبمرجعياته... ومثل هذا يطلب مهارة وفقاهة في البيان والمعاني وخبرة كاملة بمقاصد الكلام، ومواقع الكلمات وما يلائمها من المعاني، ولا نتوقع من كلّ هذا سوى خلاف منتج مثمر، هو في الأخير مقاربة لتفعيل النصوص وتأسيس قيمها.

---

[1]-ينظر خصائص كل حرف من هذه الحروف في مصنفات حروف المعاني.

[2]-الاستدلال في معاني الحروف، دراسة في اللغة والأصول، أحمد كروم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 (2009م)، ص75.

عرض
كتب ودراسات